بين الإرهابيْن الرسمي وغير الرسمي

الدكتور عبد الستار قاسم

28/أيار/2003

لست من المتحمسين لاستعمال المصطلحات الأمريكية السياسية الحديثة، لكن وسائل الإعلام أشبعت العالم بما تقوله الولايات المتحدة إلى درجة كبيرة أصبح يتعذر معها مراجعة الأمور في مقال صحافي. ولهذا أستعمل هنا كلمة إرهاب لتعني أشياء متعددة مثل العدوان والإجرام وسلب خيرات الشعوب وتعريض الأمة للهزائم.

يُخبط الإعلام العربي ومعه قادة العرب على مختلف مستوياتهم عندما يقوم شخص أو مجموعة من العرب أو المسلمين بعمل عسكري ضد أهداف في الوطن العربي مثلما حصل في الرياض والدار البيضاء مؤخرا. تثور موجة هائلة من التصريحات والتعليقات والمقالات والتحليلات والتحذيرات ضد الإرهاب والإرهابيين، ويتم تصوير القائمين بهذه الأعمال على أنهم شياطين الأرض الذين يهددون الإنسانية والاستقرار العالمي والمحلي، وتعلو الدعوات لضرورة ملاحقتهم والقضاء عليهم وعلى البنى التحتية التي ينطلقون منها.

لنتفق مع كل التحليلات التي تصدر في الإعلام حول أخطار مثل هذه الأعمال، إنما دعونا لا نترك الأمور بلا مقارنة بين هؤلاء الذين يقدمون حياتهم من أجل مسألة يؤمنون بها وبين ما يفعله القادة العرب أو الأنظمة الحاكمة بالشعوب العربية. إذا كان هؤلاء قد مسوا الناس من زاوية واحدة فإن الأنظمة العربية قد مست العرب من زوايا متعددة وما زالت. فيما يلي أهم مواضيع المقارنة:

أولا: سلب الحريات. تمعن الأنظمة العربية منذ أن وُجدت حتى الآن في سلب حريات الناس من حيث التعبير والانتقال والرزق. حرية التعبير تكاد تكون ممنوعة لدى أغلب الأنظمة العربية، ويلقى المعارضون صنوف التنكيل والتعذيب والحرمان والملاحقة. هنا لا أتكلم عن حرية انتقاد أداء بعض المسؤولين الإداريين مثل الوزراء ومديري المؤسسات وإنما عن النظام نفسه والذي تتنوع أركانه بتنوع الدول العربية. العائلة مثلا عبارة عن النظام في بعض الدول العربية، بينما يشكل ضباط عسكريون النظام في دول أخرى، الخ. يستطيع العربي أن ينتقد أداء أمين العاصمة لأن مواسير نقل المياه تالفة، لكنه لا يستطيع المس بما يسمى بالمقامات العليا.

تمارس بعض الجماعات العربية سواء كانت سرية أو غير سرية، مسلحة أو غير مسلحة، تؤمن بالعمل العسكري أو لا تؤمن قمع الحريات بطرق مختلفة؛ لكن عند المقارنة نجد أن قمع الأنظمة ممتد على عشرات السنين ومتواصل وممنهج ومتطور ويزداد تجذرا وتفننا. وكيفما حاول المرء المقارنة يجد أن الأنظمة العربية أكثر إرهابا في هذا المجال من أي تنظيم أو حزب أو جماعة. عدد من الجماعات تستعمل سلاح التكفير والتشهير لإرهاب البعض فكريا، وأحيانا الأذى الجسدي لمنع الناس عن التعبير عن آرائهم، لكن الأنظمة العربية تستعمل أساليب متنوعة ومبتكرة لقمع كل الناس بحيث أنها حولت كل شخص إلى مخابرات على نفسه، ورسمت خطوطا حمراء أصبحت تعرفها كل جريدة وإذاعة ومحطة تلفاز وتقيد نفسها بها.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الهاربين من الوطن العربي أو اللاجئين السياسيين ليسوا كذلك بسبب الإرهابيين وإنما بسبب الأنظمة العربية. وجد العديد من المفكرين والمثقفين أنهم لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم في الوطن العربي فهاجروا. أما من صمم على الصمود والبقاء في هذا الوطن فوجد السجن في انتظاره في تونس والجزائر والأردن وفلسطين وسوريا والسعودية والعراق

والسودان، وإلى بقية القائمة. وتعرض أيضا للطرد من الوظيفة وسحب جواز السفر وإثبات الوجود لدى المخابرات، الخ. الإرهابيون لم يفعلوا هذا.

ثانيا: احتكار السلطة. الأنظمة العربية تحتكر السلطة ولا تسمح بتداولها، ولا تسمح للمجالس التشريعية المنتخبة أن ترسم سياسة أو أن تشارك في اتخاذ القرارات العليا. يستمر القائد العربي جاثما على صدور الناس حتى يأتيه اليقين. من هذه الزاوية، الجماعات الموصوفة بالإرهابية أكثر رقيا من الأنظمة العربية لأن أغلبها يطالب بتداول السلطة وينبذ الوراثة كأسلوب لانتقال الحكم. حسب معايير الديمقراطية، الإرهابيون أكثر ديمقراطية من الحكام العرب.

ثالثا: قتل الناس. كم قتل الإرهابيون من الناس؟ لا أعلم بالضبط، لكنني متأكد أنه لو أجري إحصاء لوجدنا أن أعداد الذين قتلتهم الأنظمة العربية من المعارضين ومن الجماهير المتظاهرة والمحتجة يفوق بشكل هائل أعداد الذين قتلهم الإرهابيون. لا يوجد نظام عربي احترم جماهير المتظاهرين إلا النظام اللبناني، أما باقي الأنظمة التي خبرت المظاهرات فقد أعملت الرصاص في صدور الناس ورؤوسهم. وهنا أشير إلى ما قاله إسرائيليون إبان الانتفاضة الفلسطينية لعام 1987 عندما رأوا قمع السلطات الجزائرية للمتظاهرين (أظن عام 1988). قالوا أن عليهم أن يستوردوا حاكما عربيا لقمع الانتفاضة الفلسطينية.

ربما يطلع علينا من يقول أن هذا المثل عن الإسرائيليين يعطي انطباعا بأن الإسرائيليين يعاملون الفلسطينيين بطريقة أقل وحشية من معاملة الحكام العرب للشعوب العربية. بهذا الكلام أنا لا أعطي انطباعا وإنما أؤكد أن الإسرائيليين أقل وحشية. الإسرائيليون يعتقلون أبناءنا ويدمرون البيوت ويهدمون ويقتلون ويذبحون، لكن لو شهد الحكام العرب من شعوبهم مقاومة لما ترددوا بحصد رقاب الناس وبطريقة تفوق ما يقوم به الإسرائيليون من أعمال إجرامية. وهنا أذكر مواجهة السلطة الفلسطينية للمتظاهرين في غزة عام 1994 حيث قتلت ثلاثة عشر شخصا وجرحت حوالي مائتين وخمسين خلال ساعتين.

تبرر الأنظمة العربية قتل الأعداد التي لا تفصح عن حقيقتها بأنها كانت تواجه الغوغائيين والزنادقة والمنشقين الذين يهددون استقرار الوطن وأمن الناس. يجد الحكام العرب لأنفسهم مبررات لقتل الناس وذبحهم، بينما لا يجدون مبررا واحدا لشخص يصف نفسه بأنه يدافع عن حق المواطن في العيش بكرامة وأمن.

رابعا: الهزائم. حتى الآن لم يحقق الذين تصفهم الأنظمة العربية بالإرهابيين أي هزيمة للعرب والمسلمين. على العكس، هؤلاء الموصوفين بالإرهابيين هم الذين يواجهون الإسرائيليين في فلسطين وجنوب لبنان والأمريكيين في العراق وأفغانستان. الأنظمة العربية هي التي قادت الأمة إلى هزائم نكراء. هُزمت الأنظمة أمام لإسرائيل مرارا وتكرارا، وقد سقط في الهزائم عشرات الألوف من الجنود العرب وسقطت الأرض وشُرد الناس ودُمرت البيوت، الخ. من المسؤول عن هذه الخسائر الهائلة وعن هذا الخزي التاريخي؟ بالتأكيد ليس تنظيم القاعدة أو الجهاد الإسلامي أو حماس أو حزب الله. دأب الحكام العرب على سوق جنودهم إلى معارك خاسرة، وعجزوا تماما عن إعداد الجيوش بالطريقة الصحيحة لملاقاة الأعداء. حتى جزيرة حنيش عجزوا عن انتزاعها من أريتيريا. وكما يبدو أن الحكام العرب رغبوا بالهزائم من أجل أن يقولوا للناس أنه لا جدوى من قتال إسرائيل وعلى العرب أن يستسلموا للإرادة الأمريكية والإسرائيلية. أي أن قتل الجنود وما تبعه من ثكالى وأرامل ويتامى كان مطلوبا على مستوى الأنظمة لبث الإحباط واليأس في نفوس الناس.

لا تتوقف المسألة عند الهزائم وإنما تمتد إلى الحروب الداخلية بين العرب. الأنظمة العربية غذت الحرب الأهلية في لبنان وخاضت صراعاتها على حساب الشعبين اللبناني والفلسطيني. الجزائر

والمغرب خاضتا حربا بشأن الحدود، وما زالتا تتحاربان وتستنزفان طاقاتهما من أجل الصحراء الغربية. الشعوب تطالب بالوحدة والدولتان تقتتلان من أجل التمزيق. السعودية ومصر خاضتا حربا في اليمن، وجرى قتال بين السعودية وقطر، وبين اليمن الجنوبي والشمالي. حرب تستعر في جنوب السودان والأنظمة العربية لا تظن أن ذلك شأن لها. أما ليبيا فخاضت حربا غير معروفة الأسباب ضد تشاد. خاضت الأنظمة حروب تسلية كان القتلى فيها أبناء الفقراء والمساكين، وكان المنتصر أعداء الأمة.

الأنظمة العربية هي التي دعمت النظام العراقي في حربه مع إيران مما استنزف طاقات الأمة. خرجت كل الأطراف من تلك الحرب مهزومة وانتصر الأمريكيون والإسرائيليون. وقفت كل المنظمات التي توصف بالإرهابية ضد هذه الحرب وأصدرت البيانات والدعوات والمناشدات من أجل وقف النزيف إلا أن الأنظمة العربية مدعومة بأمريكا وإسرائيل أصرت على الاستمرار.

ماذا كان يمكن أن يكون مصير من يتخلف عن الحرب؟ في أضعف الأحوال، السجن الطويل مع التعذيب أو الأشغال الشاقة. وما هو مصير عائلات القتلى؟ غالبا التشريد، علما أن دولا عربية مثل سوريا تبنت برنامجا متطورا لرعاية أسر الشهداء.

خامسا: حكم القبائل وتبذير الأموال. يصر الحكام العرب أن قبائلهم عبارة عن هبة الله للشعوب وأن الحكم يجب أن يبقى فيهم وذراريهم إلى يوم الدين. هذا مخالف تماما لكل المعايير الإسلامية والإنسانية والديمقراطية. هذا ينطبق على من هم في الأصل قبائل وعلى الحكام الذين حولوا أنفسهم وأبناءهم إلى قبائل. يتبع هذا الاستئثار بالحكم طابورا كبيرا من الأمراء والأميرات والأشراف والشريفات والضباط والمخابرات الذين يستحوذون على المناصب الهامة في الدولة وعلى جزء كبير من أموال الأمة. قصور الحكام واتباعهم وأقربائهم تملأ أرجاء الأرض وكذلك فضائحهم الجنسية والقمارية. هؤلاء يسرقون أموال الأمة بمختلف الطرق والوسائل ولا يستطيعون المزايدة على ما كان يفعل النظام العراقي.

التنظيمات الموصوفة بالإرهابية ضد هذا الاستغلال والاستئثار والتبذير وتدعو إلى حشد الطاقات للقضاء على أنظمة الحكم القائمة.

سادسا: الإساءة للأمة. يقول الحكام العرب ومن يساندهم أن أعمال الإرهابيين تسيء لسمعة العرب وتشوه الإسلام والمسلمين. لكن ماذا عن الحكام العرب الذين يصنعون حكايات الإثارة الجنسية والاستبداد والتبذير في بلاد العالم. تعرض وجه الأمة العربية للتشويه المستمر لما يقوم به حكام العرب من أعمال فاضحة في الغرب مثل لعب القمار أو دخول أماكن العراة أو إغداق الأموال على قطط وكلاب ترغب في الزواج، وكذلك لما يمارسونه من استبداد وبذخ في البلاد العربية. شوه العديد من الحكام ومقربيهم صورة الإسلام لما قاموا به من أعمال وثقها لهم الإعلام الغربي.

سابعا: التعاون الأمني. حقق التعاون الأمني أفضل درجات التعاون بين الأنظمة العربية وذلك فيما يختص بالمناهضين الداخليين وليس بالاعتداءات الأجنبية. تتعاون الأجهزة الأمنية العربية فيما بينها لقمع الحركات التي تحاول التأثير على أنظمة الحكم العربية، بينما تتعاون مع الأجنبي ضد بعضها. كل الدول العربية تتعاون فيما بينها ضد تنظيم القاعدة لكن عددا منها يتعاون مع إسرائيل ضد عرب آخرين. وأغلب الدول العربية تعاونت مع النظام العراقي السابق في ضرب الشيعة في الجنوب العراقي، لكنهم تعاونوا مع أمريكا ضد العراق.

التنظيمات المسماة بالإرهابية مختلفة إلى حد كبير من حيث أنها لم تحقق التعاون الأمني فيما بينها، وبعضها يقف في كثير من الأحيان ضد البعض الآخر. والأهم أن هذه التنظيمات لا تتعاون مع إسرائيل ولا مع الولايات المتحدة وترى في الدولتين عدوين لدودين يجب قتالهما. علما أن

تنظيما كالقاعدة كان صديقا لأنظمة عربية ذات يوم لأنه كان على وئام مع الولايات المتحدة ومحاربا إلى جانبها في أفغانستان.

الخلاصة

الإرهاب الرسمي العربي أكثر فحشا وكفرا وأكبر اتسعا وخطرا من إرهاب من يطلق عليهم الرسميون العرب صفة الإرهاب. فإذا كان الإرهاب شيئا مقيتا فإن الأنظمة العربية ستلاقي المزيد من المخاطر مستقبلا. السبب أن سياساتها الإرهابية ولدت الإرهاب المضاد الآخذ بالازدياد رغم كل محاولات قمعه وتحجيمه وإنهائه. وتبقى المشكلة في الإعلام الذي يبتعد كثيرا عن التغطية الموضوعية رغم ادعائه بأنه يحاول أن يفعل ذلك. وخلاصة القول أن الحدث التاريخي يحمل في الداخل ضده ومبني في الأصل على التحول الذي لا يخضع لآراء شخصية وإنما لعوامل موضوعية تعمل بمعزل عن التقدير الذاتي للإنسان. أي أن الإرهاب يولد ضده رغما عن أنف كل الدعايات الإعلامية والأوصاف التي يمكن إطلاقها على المناوئين، ومن الأسلم لكل الأطراف العمل على إجراء تغييرات جوهرية في التراكيب السياسية والاقتصادية والاجتماعية العربية لكي نتجنب سفك الدماء فيما بيننا.